

الهند كما وصفها ابن بطوطة

الدكتور محمد إرشاد الحق*

توطئة

لا شك أن الهند والعالم العربي يتمتعان بعلاقات وطيدة منذ مطلع التاريخ البشري، والشواهد التاريخية تثبت هذه العلاقات وكونها موعلة فيما قبل التاريخ المسجل، وبعد ظهور الدين الإسلامي في القرن السابع للميلاد شهدت العصور الإسلامية الوسطى اللاحقة تطوّر الصلات بين المنطقتين بطرق شتى، ثم امتزج تراث الهندي المحلي بالتراث العربي الإسلامي الذي يعد مفخرة للعرب والهنود على حد سواء وبما ان الهند هو مكان هبوط آدم عليه السلام فجلب هذا الشيء الجغرافيين العرب منذ اقدم العصور فكان ابن بطوطة احد اشهر الرخّال الذين دخلوا الهند، ومكث هو فيها قرابة عشر سنوات ودون عنها كثيراً من المعلومات والأخبار والعادات والتقاليد، وهذه المقالة تلقي أضواء على جوانب مختلفة لوصف الرحالة العصامي ابن بطوطة عن الهند في الفترة ما بين عامي ١٣١٢-١٣٢٥م.

الكلمات الدلالية: ابن بطوطة، الأندلس، دلهي، محمد تغلق، الثقافة، الإقتصادية، المالية، الإجتماعية، الصين، كنكا، جمنا، طنجة، عليكره.

تعريف وجيز بابن بطوطة

هو ابو عبد الله شمس الدين محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن يوسف اللواتي الطنجي المغربي المعروف بابن بطوطة والملقب بأمرير الرحالين المسلمين. هو رحالة ومؤرخ وقاض وفقه ولد في يوم الاثنين ١٧ رجب ٧٠٣هـ/١٣٠٤م في طنجة بالمغرب. خرج من طنجه سنة ٧٢٥هـ فسافر بلاد المغرب ومصر والسودان والشام والحجاز وتهامة والعراق وفارس واليمن والجزائر و تونس وعمان والبحرين وتركستان وما وراء النهر والهند والصين وبلاد التتار ومناطق أفريقيا واتصل بكثير من الأمراء والرؤساء والملوك^(١). عاد الى وطنه المغرب و أملى أخبار رحلته على محمد بن جزي الكلبي و سماها "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب

* المحاضر المتعاقد في قسم اللغة العربية، جامعة كشمير

الأسفار" (٢) والتي ترجمت الى كثير من اللغات الشهيرة من البرتغالية و الفرنسية والإنكليزية وغيرها. وفي الأخير توفي في المغرب سنة ١٣٧٩هـ / ١٣٧٧م . لقبته جامعة كامبريدج في كتبها المنشورة بـ " أمير الرحالة المسلمين الوطنيين" (٣).

وصفه للهند:

وصل ابن بطوطة في شهر محرم من عام ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م إلى مدينة "ملتان" الواقعة على الجانب الغربي لنهر السند فأقام هناك قليلاً ثم غادر إلى دهلي وهي عاصمة الهند^(٤) وتوجه مباشرة إلى الإمبراطور فتلقى إكراماً بالغاً من قبله، فكان أول ما تحدث عنه بعد دخوله الهند هو وصف الأوضاع السياسية والإدارية والتنظيمية في السلطنة منذ القرن السادس للهجرة الموافق القرن الثاني عشر للميلاد، والتفت الى معرفة الماضي التاريخي للهند وأهم الأحداث السياسية فيه، وكان مصدره في سرد تلك المعلومات هو لقاء مع أحد الشيوخ الثقاة (حسب رأيه) هناك وهو الشيخ كمال الدين محمد بن البرهان الغزنوي ويصفه بـ "الإمام العلامة الفقيه"^(٥)، كان حينئذ الإمبراطور غياث الدين تغلق شاه ملكاً في الهند و لذا يعد ابن بطوطة مصدراً تاريخياً مهماً لأسرة تغلق بما كان شاهد عيان مباشر على أهم الأحداث السياسية آنذاك، وقد أشار ابن بطوطة إلى لقب السلطان بوصفه الحاكم الأعلى في السلطنة والإقليم كذلك ويتبعه عدد من الإداريين في الأقاليم ويسميه (النائب، أو الأمير) في حين يسمى الوالي الذي يجمع الضرائب والخراج ويتولى أمر المدينة بـ (العامل أو الحاكم) أما (الخادم) فهو الموظف الذي يعمل تحت إشراف مسؤول كبير في مجال الإقطاع.^(٦) التقى الرحالة ابن بطوطة لأول مرة بسلطان الهند محمد تغلق في قصره فخرج الإمبراطور واستقبله بنفسه وبرفقة عدد من وزراءه وأقام له مأدبة كبرى وأهداه هدايا قيمة ومنتوعة أيضاً تفوق في قيمتها قيمة ما جلبه الى الإمبراطور. ولم يفت ابن بطوطة ذكر "السكة" (نقش إسم الخليفة) على نقود البلاد والتي كانت إحدى أهم مظاهر التبعية للخليفة فضلا عن ذكر إسمه بخطبة الجمعة والمناسبات كشيء من تأكيد الولاء والطاعة. وكانت سابقا تسك بإسم محمد تغلق نفسه ثم أزال إسمه ووضع إسم الخليفة بدلا منه.

امتازت رحلة ابن بطوطة في تقديم أخبار قيمة هامة عن الوضع المالي عامة في الهند، وفي ميدان الزراعة كانت أرض الهند ومناخها وسهولها العظيمة وأنهاها الرائعة خاصة نهر "كنكا" (Ganga)

"جمنا" (Jamuna) ونهر براهماپوترا (Brahmaputra) ونهرمهرا (Indus) مليئةً بالعناصر العضوية التي ساعدت على احتراق أغلب سكانها لمزاولة العمل الزراعي، وقد ذكر لنا ابن بطوطة أنواعاً كثيرة من المزروعات النادرة ومنها: النبق والعنب والشكّي والبركي والتندو والنانج الحلو والحامض والمهوا (العنب) والشاماخ فضلاً عن حبوب القمح والشعير والحمص وغيرها، وإنه ذكر عدداً من الأسواق ويعرف ذلك من خلال حديثه عن بعض المدن التي زارها وذكره أن: "أسواقها حسنة".

استعرض ابن بطوطة طبيعة الوضع الثقافي والعلمي للهند بكل ما أمكن له من الدقة في منتصف القرن الرابع عشر للميلاد لأنه شاهد ولاحظ تلك الجوانب أكثر من غيره. ومن أهم المساجد التي ذكرها ابن بطوطة في الهند منها مسجد قوة الإسلام بـ "دهلي" و مسجد مدينة بدفتن ومسجد مدينة "هيلي" Heili حيث يسكن فيه عدد من الطلبة يتعلمون العلم وكان فيه سهولة مطبخة يصنع فيها الطعام للوارد والصادر وللقراء من المسلمين، اشتهرت الهند عبر التاريخ بأنها بلد الفلسفة والمعرفة وقد أدلى المؤرخون المسلمون العرب الذين زاروها في مصنفاتهم بأراء وأفكار قيمة عن علوم الهند ووفنونها، وكان بعض تلك العلوم خالصاً نابعا من الحكمة الهندية القديمة كعلم الفلك والجغرافية والتنجيم والفلسفة وقد ذكر ابن بطوطة أن بعض الأطباء الهنود اشتهروا في أساليب معالجتهم للأمراض بفضل أدويتهم المستخرجة من بعض الأعشاب والمواد المتوافرة في أرضهم لاسيما العود والكافور والقرنفل وغيرها من العقاقير^(٧) وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم على استخدام الأدوية الهندية لعلاج الأطفال وقال صلى الله عليه وسلم: "عليكم بهذا العود الهندي فإن فيه سبعة أشفية يستعطف به من العذرة ويلد به من ذات الجنب"^(٨) وصف ابن بطوطة كل هذه الأشياء بطريقة فريدة. وكما ذكرنا أن ابن بطوطة كان بارعاً في رسم المظاهر الاجتماعية وتوضيحها، فالشعب الهندي القرن الرابع عشر الميلادي كان يتكون من عدة طوائف بعضها عرقي وديني، وكذلك أديان منها سماوي وأكثرها وضعي، ونستدرك من كلام ابن بطوطة أن أهل الهند كان معظمهم من غير المسلمين وكانوا يسكنون في القرى التي يرأسها الحكام المسلمون، كما أن الإسلام كان من أهم الديانات الموجودة في الهند ومجاورتها، ولذلك فقد كان الحكم السائد فيها هو الحكم الإسلامي منذ القرن الثاني عشر للميلاد إلا أن أهم الأديان في الهند كان الهندوسية

ولاسيما ديانة الأرييين (ذوي البشرة البيضاء) كان لتلك الطائفة كتاب مقدس يمثل دستوراً لها يسمى "ويدا" (Veda) وهي كلمة سنسكريتية تعني (المعرفة) وتظم مجموعة من الأناشيد والحكم المتعلقة بعباداتهم وبعض اشعارها تمجد الالهة الهندية مثل الإله فارونا (Varona) إله السماء، والإله سوريا (Sourya) إله الشمس، والإله "أجني" (Agni) إله النار و"أندر" (Andara) إله الرعد والمطر ومنها اشتقت ملحمتا "مهابهارتا" و "راميانا" (Mahabharta & Ramyana)^(١). كان المسلمون في أقلية آنذاك إلا أن ابن بطوطة ذكرهم بطريقة كأنهم يتمتعون بالأغلبية ربّما لكثرة تعاملاته ومقابلاته معهم وبقلّة معاملاته مع طوائف هندوسية أخرى بما أن المسلمين كانوا منتشرين في أغلب المدن الهندية التي زارها ابن بطوطة.

خاتمة

وبالجملة يمكن لنا بالقول إن وصف ابن بطوطة للهند في عصره يحمل أهمية قصوى من نواح عديدة وزيارته إلى الهند أسهمت في استمرار التقارب بين المسلمين الهنود والعرب، و كما ذكرنا آنفاً أن ابن بطوطة قد نجح في وصف الهند شاملاً بكل معني الكلمة لأنه مهما وصف من الأشياء والأمور والملاح والمشاكل فقد سبر في أغوارها و جاء برأي شخصي وحلّ فريد فيها يفهم عميق أنيق نادر، كما اختار لغة سلسلة وأسلوباً رائعاً في وصف الأشياء، فكل ما كتبه عن الهند يتمتع به القراء والدارسين والباحثين إلي يومنا هذا.

هوامش المراجع والمصادر:

١. Andre Wink, Al-Hind: The Slave Kings and the Islamic Conquest, 11th and 13th Centuries, Vol. 2, BRILL, 2002, P229.
٢. تحفة النظار، مخطوط الخزانة العامة بالرباط يحمل رقم : ١١١، وتوجد نسخة منه بخزانة الإسكوريال تحت رقم ١٦٦٦
٣. Nehru, Jawaharlal (1989), Glimpse of World History. Oxford University Press P. 752
٤. محمود الشرفاوي : رحلة ابن بطوطة من طنجة الى الصين ، مطبعة النجف (النجف-١٩٧٤)، ص٢٣٢.
٥. ابن بطوطة :المصدر السابق، ج٣، ص١١٩.
٦. ابن بطوطة :المصدر السابق، ج٣، ص ٩٧
٧. ابو اطهر المباركبوري : "العلاقات الطبية بين العرب والهند" ، مجلة ثقافة الهند، ع٢، عام ٢٠٠٢، ص ١٣.
٨. ابن حجر : فتح الباري ، ج١٠، ص ١٨٣ ؛ المباركبوري : العلاقات الطبية ، ص١٤ .

٩. ابو الريحان محمد بن احمد البيروني:تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مردولة , مطبة حيدر اباد الدكن (الهند – ١٩٥٨)،، ص ٧٧ ؛ حمدي : المرجع السابق، ص ٧٣.